مشاكل الريف الاجتماعية

محاضرة

لحضرة صاحب العزة الدكتور ابراهيم رشاد بك ، مدير التعاون

في قاعة المحاضرات بدار الاسعاف بالاسكندرية

إنى ليخالجنى سرور عظيم إذ أقف هذا المساء متحدثا إليكم عن المشاكل الاجتماعية المنتشرة فى الريف المصرى ، والتى لا يستطيع الإنسان أن يخطو داخل البلاد دون أن يواجهه عدد كبير منها ، بل التى قد يصادفها الإنسان فى المدن نفسها قبل أن ينتقل إلى الريف .. وليست الهجرة من الريف — مثلا — إلا مشكلة عويصة من تلك المشاكل ، لأن الاندفاع الشديد إلى المدن دون مبرر يدعو إليه ، يفقد الريف أصلح رجاله ، أولئك الذين لا نستطيع أن نوجه إليهم اللوم والعتاب ، وإلى أن تصبح الحياة الريفية مغرية لهؤلاء المهاجرين بكثرة ما تعرضه من الفرص للحصول على دخل مناسب ، والتمتع بحياة اجتماعية ممتعة يصاحبها الشعور بلذة عقلية ، فإن الهجرة لابد أن تظل مستمرة فى العبث بصالح الريف والمدينة على حد سواء .

ومن مشاكل الريف الكثيرة تغيب الملاك عن أراضيهم ، ذلك التغيب الذى يزيد ضرره على الضرر الذى يلحقنا من المشكلة السابقة ، وقد وصل تغيب الملاك عن أراضيهم إلى درجة صرنا معها نفقد سريعا ذلك الطراز من الملاك المقيمين الذين يعيشون فى بلادهم قادة ، محاولين تنظيم الجماعات الريفية فوق ما يقومون به من تحسين النواحى الزراعية المختلفة ، وليس من الغريب على أولئك الملاك أن يهجروا الريف ليعيشوا فى المدن عيشة الترف ولا يزوروا الريف فى العام غير مرة أو مرتين للحصول على كل ما يستطيعون الحصول عليه من إيجار ، غير عابئين براحة من يعملون فى إنتاج الثروة وتوفير أسباب الراحة لهم ، وسوف تؤدى هذه الحالة إلى قيام العداء بين الطبقات وبعث شعور الكراهية الذى قد يظهر عاجلا أو آجلا فى مظاهر مختلفة .

فإذا دخلنا الريف واجهتنا مشكلة الصحة العامة ، وهي بلا شك ذات أهمية كبيرة في إقامة صرح حياة اجتماعية صحيحة ، ويكاد ضعف الصحة يكون ملموسا في السواد الأعظم من الفلاحين ، وهو إنما ينشأ من تفشي وجود الأمراض المتوطنة كالبلهارسيا والإنكلستوما وإليها يرجع السبب في قلة النشاط ، وعجز الإنتاج ، وضعف القوة الحيوية ، وفي البؤس الذي لازم الفلاحين والتشرد بينهم .

ولما كان فلاحونا مصابين بهذين المرضين الخطيرين الناشئين عن الطفيليات التي تستمد غذاءها من الدم وتسممه ببقاياها فلا عجب ان ظهرت آثار ذلك واضحة جلية في قوى أولئك الفلاحين الجسمانية والمعنوية . وقد بين لنا العلامة الخبير بالطفيليات "الدكتور" خليل بك عبد الخالق" أن حوالي ٩٠ ٪ من الفلاحين مصابون بعدوى الطفيليات التي تسبب فقر الدم وما يصحبه من مظاهر جسمانية كالإعياء وخمود الذهن .

وأما من ناحية مشكلة عدد السكان فقد أعطانا عنها أخيرا الدكتور" ويندل كيلاند" فكرة واضحة بما نشره عن نتيجة أبحاثه الجامعية ، وذكرنا صديقنا بمحاولته هذه لتوجيه رجالنا إلى التفكير جديا في بحث هذه المشكلة بذلك الرجل الذي سأل "بجا" عما إذا كان يترك لحيته أثناء نومه فوق الغطاء أو تحته ، ولم يكن بجا المسكين قد فكر في هذا الأمر من قبل ولكنه منذ ذلك الوقت لم يتمتع بنوم هادئ جميل .

وفي نوع سكان الريف ومقدار صلاحيتهم تتوقف عظمة الأمة لأنهم "المشتل" الذي تستمد منه المدن سكانها ، ومما لا شك فيه أنه متى هبطت حيوية الفلاح من الوجهة الجسمانية والعقلية فلن يبقى لنا أمل كبير في عظمة مصر .

ولقد قيل إنه إذا تحسنت أحوال السكن في الريف زال كثير من الأمراض التي تطبعه بطابعها ، وليس معنى ذلك بالضرورة أن نقصر كل اهتمامنا على إنشاء المساكن الصحية تاركين غيرها من الإصلاحات ، ولكن المقصود هو أن سوء السكن في الريف ، جدير بتضييع الجهود الكثيرة التي تبذل في نواح أخرى كتوفير الخدمة الصحية ، وتحسين التغذية ، وتوريد الماء النقي للمديرية لشعورها بأن مشكلة المساكن ذات الأهمية الأولى ، وأن حلها سوف يزيد من العوائد التي تأتي عن مختلف الجهود التي تبذل لتحسين حال الفلاحين .

وقد قامت الجمعية الزراعية الملكية في السنوات الأخيرة بعدة خطوات لتبرهن بطريقة عملية على أن في الإمكان إنشاء منازل من الطراز الأخضر على أسس صحية توفر للفلاح كل مطالبه بتكاليف لا تزيد على ٢٥ جنيها للمنزل الواحد ، والشاهرة الماثلة في تعمير هذه المساكن كما يقول حضرة صاحب السعادة "فؤاد أباظة باشا" مدير الجمعية القدير

هى تفادى الطفرة فى نزع الفلاحين من الظروف التى عاشوا فيها قرونا عدة ، ثم تحسين أحوال المعيشة تدريجا و بشكل يتفق وما غرس فى نفوسهم من الأفكار القديمة ، ولقد فشلت فى الماضى خطط عدة وضعت لتحسين حال الفلاحين ، لما كان فيها من طفرة وثورة .

ولنتحدث الآن عن مشكلة التغذية التى قد يظن لأول وهلة أن بلدا غنيا بالزراعة كمصر لايمكن أن تقوم فيه مشكلة كهذه . يقول العلامة " ويلسون " مرجعنا فى هذه المسألة إن هناك حالات ثلاثا تتكون منها هذه المشكلة . أما هذه الحالات فهى :

(١) قلة مقادير الغذاء .

(٢) قلة القيمة الغذائية فى الطعام .

(٣) وقوف الفقر حائلا بين الناس و بين الحصول على كفايتهم من الغذاء .

وتدل نتيجة الأبحاث التى قام بها البرفسور " ويلسون " على أن تلك الحالات الثلاث موجودة كلها فى ريف مصر وحضره على السواء ، وأنها أدت إلى قيام البراهين الكافية على شدة انتشار سوء التغذية بين الأهالى . وقد يبدو محالا أن تستمر أمة مع بقاء كثرتها العظمى ناقصة التغذية بهذا الشكل ، ولكنا نحن الواقفين على أحوال الفلاح نعلم حق العلم أنه يعيش فى الواقع على الذرة ، أى على غذاء قليل التوازن للغاية ، ونعلم أنه لا يأكل اللحم إلا يوم السوق الأسبوعية على الأكثر ، وأنه يبيع ما لديه من لبن وزبد وجبن ودجاج وبيض لأن ظروفه لاتسمح له بأكل هذه الأشياء .

* * *

وقد شغلت المشاكل التى عرضتها عليكم بال الحكومة والهيئات العامة والأفراد المهتمين بالشؤون الاجتماعية ، و إنى ليسرنى أن أقول إن جميع من ذكرتهم يتعاونون بكل مافى وسعهم من جهد لحل مشاكلنا الريفية و إنه لمما يغبطنا أن نرى الخبرة الأوربية والأمريكية فى مجال الإصلاح الاجتماعى تبذل لنا فى سخاء .

وكنت أحب أن أتحدث إليكم عن مشاكل أخرى غير التى وضحتها الآن كمشكلة التعليم الريفى ، والتقاليد الاجتماعية ، والعادات العامة ، وتوفير الماء النقى ، لولا ضيق الوقت ، وإذا كانت المشاكل الاجتماعية كثيرة فى ريف مصر فلأن مصر بلاد قديمة ، ولها تاريخ سياسى واقتصادى واجتماعى قديم ، هو وحده المسئول عن الظروف التى نعيش فيها الآن .

وقد ساءت "محمد على باشا الكبير" منذ قرن ونصف ، تلك الظروف السائدة فى الريف لدرجة رأى معها أن خير مايعمله لتحسين تلك الظروف حرق القرى كلها وبناؤها من جديد لولا أن علماء الأزهر أشاروا عليه بغير ذلك ، ونصحوا له باتخاذ وسائل التطور بدل الثورة على القديم ، وقد بينوا له أن تلك الوسائل أقل نفقة وأجدى نفعا ، وأن الإصلاح لا يعنى مجرد التغيير الخارجى فى مظاهر القرى ولكنه يعنى كذلك التغيير الداخلى وهو الأهم والأصعب ، وهم يعنون بذلك التغيير فى عقول الناس وقلوبهم .

* * *

إن الفقر والجهل والأنانية أصل المشاكل التى ذكرتها ، ولو أننا تمكنا من القضاء على هذه العقبات لقطعنا مرحلة طويلة فى سبيل تحسين المعيشة ، ومن الوسائل الفعالة لبلوغ هذه الغاية تنظيم أهالى الريف على أساس المبادئ التعاونية ، أو بمعنى آخر مساعدتهم على مساعدة أنفسهم .

وإلى رواد الحركة التعاونية يرجع الفضل فى إدخال نظم التعاون إلى انجلترا منذ حوالى مائة سنة ، وقد حاولوا ذلك لأنهم اعتقدوا أن تحسين الحالة الاقتصادية للشعب يجب أن يسبق رفع مستواهم الاجتماعى ، وبنى الرواد على هذا الأساس حركتهم التى ترمى إلى التقدم التدريجى ، ذلك التقدم الذى تتلخص مبادئه فى النقط السبع الآتية :

(١) باب العضوية المفتوح .

(٢) الديمقراطية فى الإدارة .

(٣) توزيع العائد على الأعضاء بنسبة معاملاتهم مع الجمعية .

(٤) الفائدة المحدودة على رأس المال .

(٥) الابتعاد عن الاشتغال بالسياسة والدين .

(٦) التعامل نقدا .

(٧) نشر التعليم والثقافة .

وأخذت مصر بهذه الحركة التى أصبحت دولية منذ ثلاثين عاما تقريبا . وكانت الحركة فى مظهرها الأول حركة شعبية ، غير أنه لم تمض أعوام قليلة حتى ظهر لأسباب كثيرة لا مجال لذكرها الآن ، أنه إذا لم تأخذ الحكومة بيدها ، وتوجه إليها عنايتها أصابها الفشل والانحلال . ولإعطائكم فكرة عن قوة هذه الحركة التعاونية فى أنحاء العالم أذكر لكم إحصاء عن جمعياتها المختلفة من زراعية واستهلاكية ومالية وصناعية :

بلغ عدد الجمعيات ٧٠٠,٠٠٠ وعدد الأعضاء ١٥٠ مليونا فى حين قدرت قيمة المعاملات بنحو ستة مليارات من الجنيهات .

وإذا نظرنا إلى طبيعة الحركة التعاونية ومدى اتساعها وانتشارها فى مصر استطعنا أن نحكم بأنها زراعية أكثر من أى شىء آخر ، إذ لا يوجد غير خمسين جمعية من ثمانمائة تمد سكان المدن بحاجاتهم المنزلية .

وحالة الجمعيات التعاونية فى مصر هى كما يأتى :

بلغ عدد الجمعيات حتى الآن ٨٠٠ وبلغ عدد أعضائها ٩٠,٠٠٠ أما رأس مالها المدفوع فهو ٢٣٥,٠٠٠ جنيه واحتياطيها ٨٥,٠٠٠ جنيه وقدر مجموع أعمالها فى السنة بنحو ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه .

الخدمات المادية للجمعيات التعاونية الزراعية

تمد الجمعيات التعاونية الزراعية أعضاءها بجميع حاجاتهم الزراعية كالحبوب والأسمدة بصفة خاصة ، متوخية بذلك تقديم أجود الأصناف مع اعتدال السعر . كما أنها تساعد على تسويق بعض المنتجات كالبصل والبطاطس والفاكهة والخضر ، وتقوم فى الوقت نفسه بتدخين الموالح فى مساتين الأعضاء . وتمكن الجمعيات أعضاءها فوق هذا كله من استعمال آلات الحرث الحديثة وكذلك آلات الدرس .

ويمد قليل من هذه الجمعيات أعضاءه ببعض حاجاتهم المنزلية كالشاى والسكر والصابون وبعض أصناف الملابس . ويحصل أعضاء الجمعيات التعاونية عن طريق جمعياتهم على القروض اللازمة لهم من بنك التسليف الزراعى بفائدة قليلة وتساعد هذه القروض فى بعض النواحى كشراء الماشية ، ونفقات الزراعة وجنى المحاصيل . وإذا كانت هذه الطريقة المالية فى التعامل مع بنك التسليف ليست تعاونية بالمعنى الصحيح فقد لجأت إليها الجمعيات إلى أن تتمكن من إنشاء بنك تعاونى مركزى خاص بها .

ومن نواحى النشاط الملموس للجمعيات قيامها ببعض الصناعات الزراعية كمعامل الألبان التى بدأ بعضها فى إنشائها بالفعل . ونأمل انه يتقدم بفضل الجمعيات التعاونية نمو وازدهار بعض الصناعات الاخرى ، كنتاج العسل ، وصنع المربات والفواكه المحفوظة وزيت الزيتون . وبهذه الطريقة وحدها يستطيع المنتجون أن يجنوا ثمار الجهود التى يبذلونها .

الخدمات الثقافية والاجتماعية للجمعيات التعاونية

وتخصص الجمعيات التعاونية عملا بقانون التعاون جزءا من صافى أرباحها للقيام ببعض الخدمات الاجتماعية والثقافية فى مناطق أعمالها . وتصرف هذه المخصصات الاجتماعية التى تتفاوت تفاوتا كبيرا فى مختلف الجمعيات فى أغراض متعددة كانشاء طلمبات المياه الريفية ، و إصلاح الطرق والجسور ، وغرس الأشجار المظللة و بناء المدارس الريفية وتحسين حالة القرية من الوجهة الصحية و إقامة أحواض لسقى الماشية و إنارة الشوارع ، و إدارة مدارس صغيرة يتعلم فيها الصغار بعض الصناعات كالنسيج وصنع السجاد كما تقوم بإنشاء قاعات للمحاضرات والاجتماعات العامة ، وامتلاك أجهزة الراديو ، و إيجاد المكتبات العامة .

ولما كان بعض الخدمات الثقافية يعود على الأعضاء أنفسهم فاننا لا نرى عذرا يمنع المزارع الحريص على مصلحته من الانضمام إلى الجمعية القائمة فى قريته . ولا شك فى أن معلومات الأعضاء الزراعية وكذلك طرق تعاملهم تتقدم عن طريق جمعياتهم التعاونية التى تعتبر مراكز لنشر الأبحاث العلمية و إدخال النظم الحديثة . ولا شك فى أن اتصال الأعضاء المستمر بغيرهم من الأعضاء الذين هم أوسع منهم علما وأكثر تجارب ، يزيد فى معارفهم العامة ويوسع مداركهم . ولا شك كذلك فى أن جميع المطبوعات من كتب وصحف ومجلات ورسالات ونشرات حكومية تصبح فى متناول أيدى الأعضاء جميعا متى وصلت إلى الجمعيات و إذا لم يكن فى استطاعة أولئك الأعضاء أن يطالعوها فانها ستقرأ عليهم أو يلمون بمحتوياتها عندما تنعقد اجتماعاتهم بين وقت وآخر . هذا كله إلى جانب أجهزة الراديو التى تعتبر مصدرا أساسيا لاستقاء المعلومات والاستمتاع بوسائل التسلية . وقد استطاع كل ما قدمناه من الفوائد الثقافية أن يجعل جمهور التعاونيين أكثر تهذيبا وعلما ونظاما ، وأقدر على الحصول على وسائل التسلية .

ولقد كان للتعاليم التعاونية وتطبيقها العملى أثر فعال فى طبائع الأعضاء ، فقد مكنتهم من معرفة مالهم من حقوق وما عليهم من واجبات ، كما مكنتهم إدارتهم لتلك الجمعيات التعاونية من أن يفطنوا بطريقة عملية إلى معنى الديمقراطية ومزاياها . وكان لهذه الديمقراطية أثر كبير فى تعويدهم على طريقة الحكم الذاتى . وبالاختصار فان الجمعيات التعاونية تلعب دورا مهما فى إحياء الميل العام للأخذ بالمبادئ التعاونية وتطبيقها عمليا .

وختاما أرجو أن أكون قد وفقت فى هذا الوقت القصير إلى إيضاح قليل من مشاكلنا الاجتماعية التى تكثر فى الريف المصرى ، وفى وصف العلاج الناجع لحل هذه المشاكل . ولا شك فى أن كل هذه المشاكل صحيحة وفى أن علاجها عملى . . ولا شك فى أن كليهما ليس بجديد علينا . وكل ما فى الأمر أن اهتمامنا بالحياة الريفية — وهو فى الواقع تعبير صحيح لانتشار فكرة الحياة الاجتماعية — هو الذى أبرز لنا هذه المشاكل فى صورة واضحة . . . وليس من شك فى أن الاعتراف بوحدة الحياة فى الريف والحضر فكرة من الأفكار الحديثة التى ترى أن المدنية لا يمكن أن تثمر ما لم تقم على مبادئ قوية ثابتة .

من أقوال الإمام على

— من الخرق المعاجلة قبل الإمكان ، والأناة بعد الفرصة .

— الفكر مرآة صافية ، والاعتبار منذر ناصح ، وكفى أدبا لنفسك تجنبك ما كرهته لغيرك .

— العلم مقرون بالعمل ، فمن علم عمل ، والعلم يهتف بالعمل فان لم يجبه ارتحل عنه .

— من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس اليه ، فمن قام فيها بما يجب لله عرضها للدوام ، ومن لم يقم بما يجب له عرضها للزوال .

— البخل جامع لمساوى العيوب ، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء .

— رب مستقبل يوما ليس بمستدبره ، ومغبوط فى أول ليل قامت بواكيه فى آخره .

— من طلب المحال خذلته الحيل .

— من صارع الحق صرعه .

— لا تجعل ذربَ لسانك على من أنطقك ، ولا تجعل بلاغة قولك على من علمك .